سنة الرحمة

١٨٣١

الكويت تولد من جديد

الباحث / عادل محمد الزنكي

مجموعة الأسر التي استقرت في منطقة بهيته والتي تضم المنطقة المعمورة من الكويت وكانت تضم آنذاك ألفا إلى ألفين من البيوت الطينية تركز نشاطها في المجال البحري المطلين عليه إلا أن القدر قد خبأ للكويت ما لم يكن في الحسبان، عندما ضرب الكويت عام 1891م وباء الطاعون الذي شهد منعطفاً كبيراً في تاريخ الكويت إذ قضى على أسر بأكملها وذهبت في طي النسيان وترك لبعضها فرداً أو أكثر ممن تمسكوا بها، وفضلوا أن يفنوا شهداء بإذن الله".

لقد كان عام الطاعون غاية في الأهمية التاريخية التي مر بها وطننا الحبيب، حيث كادت أن تتغير تركيبته الاجتماعية والاقتصادية والسكانية، وكان من الممكن

أن تتغير خريطة أرض الكويت والبشر عليها، لولا جهود بعض الأسر التي ساهمت في بناء الكويت من جديد، ما بعد الطاعون، لتحافظ بذلك على وطننا.

لقد مثل الطاعون حقبة فاصلة في تاريخ الكويت، ونقلة نوعية كبيرة في التركيبة السكانية لدولة الكويت في العصر الحديث، حيث أدى إلى موت العديد من سكان الكويت، ولم ينج منهم إلا ما يربو على أربعمائة شخص تقريبا من أهلها على بعض الروايات وبعض الروايات زادت عن ذلك بثلاث آلاف نسمة بعد أن كان عدد سكان مدينة الكويت قد تجاوز عشرة آلاف نسمة قبل حدوث الطاعون عام 1831 م.

ولقد أتى بفكر سكان الكويت الناجين من الموت أن يلتحقوا بأسرهم في المناطق المجاورة للكويت، إلا أن عالم الدين وفقيههم الشيخ سعود بن محمد أبى إلا أن يتمسك بالبقاء في وطنه الكويت، وشجع الكويتيين على الزواج من المناطق المحيطة بهم، مثل: نجد والزبير وغيرها، حتى تنامى عدد سكان الكويت إلى أربعة آلاف نسمة بعد سنوات قليلة من انقضاء الطاعون.

ورد ذكر طاعون عام 1831 م في العديد من المصادر التاريخية الكويتية، في إشارات متفاوتة على خطورة هذا المرض، ومدى تأثيره على تاريخ الكويت والمنطقة في هذا الوقت، حيث ذكر الأديب أحمد البشر الرومي في كتابه:

«مقالات عن الكويت» الطاعون، وقال عنه:

كان من أفظع ما عرفه العراقيون والكويتيون والنجديون، حيث كان وباء كاسحاً، أفنى أكثر سكان هذه المناطق تقريباً، وظهرت أولى الإصابات بهذا الطاعون في مدينة «تبريز»، إحدى مقاطعات إيران.

وقال الشيخ عثمان بن بشر النجدي في كتابه: «عنوان المجد» ، الطاعون: في عام 1831 م: وقع الطاعون العظيم، الذي عم العراق والسواد والمجرة وسوق الشيوخ، والبصرة والزبير والكويت وما حولها، وليس هذا مثل الوباء الذي قبله (يقصد وباء الكوليرا عام 1820 م)

المسمى (العقاص)، بل هذا هو الطاعون المعتاد، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه، وحل بهم الفناء العظيم الذي انقطعت بسببه قبائل وعوائل، وخلت من أهلها منازل، وإذا دخل في بيت لم يخرج وفيه عين تطرف، وجثا الناس في بيوتهم لا يجدون من يدفنهم، وأموالهم عندهم ليس لها والٍ، وأنتنت البلدان من جيف الإنسان، وبقيت الدواب والأنعام سائبة في البلدان، ليس عندها من يعلفها ويسقيها، حتى مات أكثرها، ومات بعض الأطفال عطشى وجوعى، وخرج أكثرهم إلى المساجد رجاء أن يأتيهم من ينقذهم، فماتوا فيها حيث لا تقام فيها جماعة، وبقيت البلدان خالية لا يأتي إليها أحد»

وذكر المؤرخ الشيخ عبد العزيز الرشيد في كتابه «تاريخ الكويت» الطاعون: أصيبت الكويت في عام 1831 م بطاعون عظيم قضى على كثير من أهلها، لولا المسافرون من أهلها الذين لم يرجعوا إليها إلا بعد صفاء جوها من تلك الظلمة، رجعوا إليها، ولكن وجدوا الطاعون قد فتك بكثير من نسائهم، فاضطروا إلى استقدام عوضهن من البلاد المجاورة كالزبير ونجد وغيرهما، وبذلك حفظوا البلد من العدم والفناء، وفي أثناء تلك المعمعة أغلق أهل بيت في منطقة «شرق» دارهم، وادخروا فيها ما يكفيهم من طعام وشراب، ولم سمحوا لأحد بالدخول عليهم خوفا من تسرب العدوى، فكان هذا البيت من جراء هذا التحفظ هو

الوحيد في الكويت الذي لم يصب من يد الطاعون بضرر، غير أن امرأة حاولت الخروج لتنظر ما أصاب أهلها فأنزلوها بحبل من السطح ثم رجعت إليهم أخيراً فلم يفتحوا لها، فرجعت أدراجها وقضى عليها الطاعون، كما قضى على غيرها .

وتذكر الروايات أيضاً أن أحد مشايخ الدين أشار - في شدة الوباء-على الكويتيين أن يغادروا المباني والبيوت فتركوها، وبنوا لهم أكواخاً في منطقة «الشويخ»، وكان القادم إليهم يسمع التهليل والتكبير قبل وصوله إليهم بمسافة بعيدة، وبقوا أياما في هذه الأكواخ والخيام، وظلوا يدعون الله حتى رفع عنهم البلاء وعادوا إلى مساكنهم.

وقد حدث هذا الطاعون - كما قيل - في أيام الشتاء، وكانت سفن الكويت التجارية التي تسافر إلى الهند في مثل هذا الفصل من كل عام خارج الكويت، وكانت تحمل عدداً لا بأس به من الرجال، هؤلاء نجوا من شر الوباء، إذ صادف حدوثه غيابهم، وكانوا إما في عرض البحر وإما في الهند، ولم يكن الطاعون قد وصل إلى هناك، فلما وصلوا إلى الكويت وجدوها شبه خالية من السكان ومن أي نشاط تجاري إلا من بعض الضعاف الذين نجوا من الموت، فكانوا الأساس الثاني الذي انتشل الكويت من الفناء المحتم والانقراض التام.

وإنه لمصاب عظيم حين يجد المرء نفسه بين مرضى لم يبق على مفارقتهم الحياة

إلا بضع ساعات، وجثث متراكمة ملقاة في الطرقات والأزقة والبيوت لا تجد من يواريها التراب، وأطفال تصرخ إما من ألم المرض، أو من فقدهم من يقوم على إطعامهم ورعايتهم، فتجدهم يهيمون على وجوههم في الشوارع، تتلقفهم الإصابات الطاعونية في كل لحظة، ومهما فكر المرء في ذلك اليوم ليبحث له عن طريق للخلاص، فإنه عاجز عن ذلك، فقد كانت كل أبواب الخلاص في ذلك اليوم مقفلة، وكل سبل الفرار مسدودة، كان أهل الكويت في ذلك اليوم كما قيل : البحر أمامهم، والصحراء خلفهم، والطاعون عندهم، فليس لهم إلا الله) ويشاء القادر القدير، أن يتلاشى المرض شيئاً فشيئاً حتى ينعدم قبل أن تنعدم الكويت، وإذا

الأحيـــاء مـــن أهلهـــا لا يجـــدون مـــن يمـــت إلـــيهم بصـــلة القرابـــة إلا النـــادر القليـــل، ويتـــنفس شـــاعرهم النبطـــي الصـــعداء، ويتلفـــت يمنـــة ويســـرة فيجـــد الأرض كمـــا كانـــت، ولكنـــه لا يجـــد الأهـــل والأصـــحاب والأحبـــاب، فتـــذرف عينـــاه ويشـــرق بالـــدمع، ثـــم يرفـــع عقيرتـــه متألمـــاً ليـــنفس عـــن نفســـه، ويقـــول (مـــن قصـــيدة طويلـــة يقـــال إن ناظمهـــا ســـعود بـــن محمـــد، وقـــد ســـمي أحـــد أحيـــاء الكويـــت القديمـــة باسمه، والذي سمي بفريج سعود):

شـــفنا المنـــازل مثـــل دوي الفضـــا

عقـــب الســـكن صـــارت خلايـــا مخاريـــب

وا حســـرتي لـــيمن طـــرا مـــا مضـــى

عصـــر يـــذكرني الأهـــل والأصـــاحيب

في ظل انعدام وضياع المستندات والوثائق، حرصت الأمهات اللائي تركن أطفالهن بعد إصابتهم بالمرض، على تعريف هؤلاء بأسمائهم وأسماء الأب والجد، حتى يمكن التعرف عليهم بعد العودة مرة أخرى.

لقد مثلت الكويت في تلك الفترة وطنا يلفظ أنفاسه الأخيرة، وهو يصارع من أجل البقاء مع مرض قلما تنجو منه مدينة في العالم، وطنا قيَّض الله له أن ينجو بفضل عزيمة أهله، وبفضل تضافر العديد من الجهود التي قام بها الذين نجوا من المرض.

قامت فرق الإنقاذ بالبحث عن الناجين، وفقا لقواعد مهمة في كيفية التعامل مع

المصابين، منها ضرورة القيام بعملهم في أثناء الليل، حيث الظلام الدامس، وهو الأمر الذي أضفى على عملهم صعوبة أخرى، تتمثل في ضرورة البحث عن الناجين أثناء الليل، مع الحرص على مغادرة المنطقة المنكوبة قبل شروق الشمس، قبل أن ينشط الوباء مرة أخرى.

كما تعلّم الناجون كذلك إقامة ما عُرف فيما بعد بالحجر الصحي للذين نجوا من الطاعون، في مكان يبعد عن المنطقة المصابة، وهذا الحجر كان بالشويخ، لكي يتم التأكد من عدم حمل أي منهم للوباء، الذي انتشر كما تنتشر النار في الهشيم.

ولقد أبرزت أحداث الطاعون المعدن الأصيل لأهل هذا البلد، حيث تمسك أهل

الكويت ببلدهم، ورفضوا مغادرتهُ مهما كان الثمن، وذلك بالرغم من الشائعات عن أن الوباء يمكث في المدينة التي يدخلها فترة، قد تصل في بعض الأحيان إلى عدة أعوام، وهو الأمر الذي يجعل الجميع يفكر في المغادرة والانتقال إلى منطقة أخرى، لكنهم رفضوا ذلك، وأصروا على البقاء في أرضهم، حتى لو كان مصيرهم هو نفس مصير ذويهم الذين ماتوا بسبب الطاعون، تمسكا بسنة النبي صلى الله عليه وسلم في عدم مغادرة موطن الوباء، ووفاءً للوطن الغالي.

إن فكرة مغادرة البلاد كان معناها نهاية وطن، وتشتت شعب، ولكن فكرة الناجين إلى الشويخ ودفن الموتى داخل بيوتهم، ساعدت في إخراج البلاد من كابوس

الطـــاعون بفضـــل الله، الـــذي اســـتجاب لـــدعاء الصـــالحين مـــن أهـــل الـــبلاد بعـــد مـــرور ثلاثـــة أشهر من بدء الطاعون.

وكانـــت المقـــابر الجماعيـــة مصـــير الأمـــوات مـــن جـــراء الطـــاعون ســـواء كـــانوا أطفـــال أو نســـــاء أو رجـــــال يـــــدفنوا دون غســـــلهم أو الصـــلاة علـــيهم وكـــان الـــذين يقومـــون بالـــدفن متيقنـــين بـــأن فـــي الغـــد القريـــب ســـتدور الـــدائرة علـــيهم لأنـــه وبـــاء لا يـــرحم وينتقـــل بـــالهواء فلـــيس مـــن ســـبيل مـــن الهـــرب منـــه إلا بمشـــيئة الله، وتجـــدر الإشـــارة إلـــى أنـــه تـــم دفـــن المـــوتى بملابســـــهم وبـــــدون تغســـــيل أو تكفـــــين، كمـــــا يـــــدفن الشـــــهداء بملابســـــهم فـــــي ســـــاحة المعركة.

كما أخبر المصطفى صلى الله عليه وسلم بأن من يموت بالطاعون شهيداً عند ربه.

مثلت النجاة من الطاعون البداية الحقيقة لتاريخ دولتنا الحبيبة في عصرها الحديث، حيث أفرز لنا نوعية جديدة من السكان، تحمل بين طياتها تناقضاً غريباً في المشاعر والأحاسيس، وتجمع بين العديد من المتناقضات، ما بين بيوت خربة قد دمرها الطاعون، وأفنى أهلها على بكرة أبيهم، وبيوت حولت قبورا لساكنيها، ولا نتخيل أن نسكن في بيت فيه قبور أهلنا، فإذا كان هذا الموقف يثير في نفوسنا الأسى والحزن على فراقهم، فإنه في الوقت نفسه قد دفعهم دفعا نحو ضرورة الانتصار على الطاعون، وضرورة الثآر منه بإعادة بناء مدينتهم، متمسكين بما

تركه الآباء والأجداد من موروثات حضارية، وتقاليد أصيلة، بقيت في نفوس أهلنا، وخلقت فيما بينهم نوعاً من التكافل الاجتماعي، والتكافل السياسي والمادي، وهو الأمر الذي ما زلنا ننعم به حتى الان.

وهنا وجب علينا أن نناقش فكرة كيف يمكن الحفاظ على حياة من نجا من الكويتيين في المناطق التي أصابها المرض، حيث حرص الكثير من السكان على ضرورة تجنب الاختلاط بمن تعرض للمرض، حيث إنه ينتقل عن طريق الهواء، ومن ثم قام الكثير من السكان بإغلاق أبواب منازلهم عليهم، ومنع دخول أو خروج أي شخص منها، ومن خرج لا يعود مهما كان الثمن.

وفي هذا الجانب يجب أن نؤكد على بعض الجوانب الإنسانية التي خلق منها الطاعون حالات استثنائية في تاريخ الكويت وحالة التعاون والتكاتف والتعاضد أمام الملمات فظهر المعدن الأصيل لأهل الكويت في مواجهة الكوارث سواء كان ذلك في الماضي أو العصر الحديث لان هوية الكويت كانت هوية وطنية نابعة من روح الانتماء لهذا الوطن.

ومما يدل بما لا يدع مجالاً للشك على مدى خطورة هذا المرض عدد من مات شهيداً بسبب هذا الوباء ومدى قدرته على الفتك بالبشر، ومقدرته على الانتقال بين السكان بصورة رهيبة، وبسرعة لا يمكن أن يتخيلها إلا من عاش من قبل تجربة مع الوباء نفسه حتى أن الأم عندما تصاب

بهـــذا الوبـــاء ترمـــي بأطفالهـــا خـــارج البيـــت لحمـــايتهم مـــن إنتقـــال الوبـــاء إلـــيهم وعســـى أن يجدوا من يكفلهم.

ومـــن ناحيـــة أخـــرى وعنـــد تواجـــد بعـــض مـــن ملاحـــي الســـفن الكويتيـــة فـــي بـــلاد الهنـــد خـــلال فتـــرة تعرضـــها للطـــاعون لاحظـــوا قيـــام الســـلطات الهنديـــة بإنشـــاء نظـــام الحجـــر الصـــحي، وبتطبيـــق منـــع دخـــول وخـــروج أي شـــخص مـــن المنطقـــة الموبـــوءة، مهمـــا كلفهـــم ذلك من تضحيات.

وعنـــدما بـــدأت الدولـــة فـــي تثمـــين المنـــازل داخـــل الســـور، وتشـــجيع المـــواطنين علـــى الســـكن فـــي المنـــاطق الجديـــدة خـــارج الســـور، وكـــان ذلـــك مـــع بدايـــة الخمســـينيات مـــن القـــرن العشـــرين، ثـــم بـــدأت المشـــاريع التجاريـــة

والاستثمارية في البناء والتعمير، وأخذت عمليات الحفر والتشييد، وهنا تفاجأ البناؤون بوجود العظام وبواقي الجثث مدفونة بعضها فوق بعض، وعند دراسة تلك الحالة في دائرة الصحة، والسؤال عن تلك الحالة من كبار السن أكدوا بأن تلك الجثث هي لبواقي سنة الرحمة (الطاعون: 1831 م)، والتي قضت على معظم سكان الكويت.

المراجع:

1. عثمان بن بشر النجدي: عنوان المجد، الرياض، سنة 2002.
2. عبدالعزيز الرشيد: تاريخ الكويت، الطبعة الثالثة.
3. أحمد البشر، من تاريخ الأوبئة في الكويت وجاراتها، جريدة عالم اليوم، الكويت، 25 اغسطس سنة 2007م.